فوزية السندي

شاعرة من البحرين

# مريم السعد

(1)

من في المحرق لا يعرف امرأة هذا الزمان الصعب" مريم السعد"؟
من في البحرين، لا يعرف جنة تمشي على الأرض؟
امرأة وهبت وقتها كله، لتبلل بدمعها الخفي ندرة الأمل، لتنشر حنان الرحمة من قلبها الصغير، المكتظ بحب يسع العمر.
مريم حضن أم يشبه المحرق، سعت طيلة وقتها النبيل، على استشراف معنى المحبة غير المشروطة، محبة أسرفت في تقديرها، منزوعة من شغاف صدرها الرحيم، ترسلها لكل من يحيا حولها، من يسعى إليها، من لا تعرفه، يكفيها أن هناك من ينتظر دفء يديها، فيض
مريم السعد، امرأة تضافرت وحدها، معتنقة إيماناً فذاً موصولاً بجدارة الحب على علاج بأس الحياة وشقاوة الإنسان، حب لا حد له، يد لا ترتد، مجبولة بتلبية النداء تلو الآخر، امرأة لا تتعب، وهي تشرف على انهيال العطاء، فن السؤال عن الآخرين، مهتمة بكل شيء يتصل بمرارة البشر من ضيق ذات اليد.
مريم قديسة، كانت، تتعالى كل هذا الوقت الأصم، كانت صوتاً لمن لا صوت له، حضناً لمن تيتم بعد الرحم، لكل إنسان داهمته الحياة ببلوى العمر.
ببساطة، إلتهت "مريم" بالمحبة كلها.
مؤسسة للخير كله، وحدها، دون جمعية عمومية، أو مجلس إدارة، أو زعيق إعلامي، أو جلجلة للدفاع عن قضايا المرأة وحقوقها، صمت نادر غطى أتون حياتها، شبه جمرة تلظت بنار أدفأت برد بيوت تعددت من حولها، دون حرف واحد، حرف واحد لم يصدر عنها، ليس كما يحدث الآن من فضح للناس، لقاء لقمة تنثرها الجمعيات والصناديق الخيرية ونواب الناس.

امرأة انشغلت برعاية الآلاف من الأرامل، المطلقات، الشيوخ، العجائز، ذوي الاحتياجات الخاصة، كل المرضى، كل الفقراء، عندما أكتب آلاف، أجحف"مريم" حقها، لأنها لم تأبه بالعد إطلاقاً، بل توانت نحو اجتهادها المذهل، دون أن تعبأ بذلك، دون أن تعرف معنى الطائفية، التي استشرست الآن، حد استناد العمل الخيري على أسس طائفية، عرقية، قبلية،عنصرية،انتهازية سياسية، دعم حملات انتخابية.

هذه المرأة "الأم تيرزا البحرين" كانت تحرص على تقديم مالها الخاص لعملها الخيري، ثم تتصل بأصحاب الرخاء من أهل الخيرات، لتبلغهم برغبات تكدست في قلوب النسوة والرجال، لتحول ذاتها إلى صلة وصل، توصل عبرها التبرعات العينية والمادية.

كانت تلبي كل الطلبات، من المأكل حتى الملبس، العمرة، الحج، إعالة اليتامى، رعاية المرضى للسفر للخارج، احتفالات الزواج، مساعدات للمطلقات، كل شيء، كل امرأة تحتاج لمساعدة ما، ما عليها سوى الاتصال بمريم السعد.

بعدما تقاعدت من عملها كمشرفة للوحدة الإنتاجية في مركز المحرق الاجتماعي، أسست في بيتها نموذجاً للأسرة المنتجة، لتحقيق الريع اللازم لعملها الخيري، منتوجاتها غطت متطلبات عدة في دول الخليج، تعتبر مريم من أوائل النساء اللواتي جاهدن في هذا المجال التنموي الهام، كما شجعت العديد من النساء على امتهان ذات المشاريع، لإيمانها بأهمية العمل والإنتاج لتحسين صورة الحياة، كانت تساعد العاجز لا العاطل الذي يستطيع العمل، كانت تساند العاطلين بمشاريع ليؤسسوا بسواعدهم طريق المستقبل.

(2)

عندما اختار" السرطان" مريم، فرشت السجادة وصلت ركعتين، شكراً للإله، لأنه اختارها بالذات لتجريب محنتها، لاختبار إيمانها الصعب، شكراً حقيقياً، تجلى رغماً عن المرض –الذي غدا ينخر خلايا جسدها– باستمرارها في عملها المحب، كأن شيئاً لم يحدث.

واصلت– رغم الألم– تحقيق أحلام الناس، كانت تتفق مع الفنادق للاتصال بها بعد نهاية كل عرس، يتصلون في الثالثة بعد منتصف الليل، فتهرع "مريم" وعاملاتها، لاستلام ما تبقى من مآدب

العرس، تحميه في ثلاجات بيتها، لتوصله لفقراء البحرين وجياعها في نهار اليوم التالي.
الأدهى من ذلك، كانت تسافر لدول الخليج، لجمع زكاة الثقاة هناك، لبناء بيت لأرملة ما، أو شراء أسرة طبية، أو....
في رمضان الماضي، وزعت 3000 كوبون للأسر الفقيرة، كوبونات مدعومة لشراء الأغذية، بعد أن اتفقت مع عدة متاجر لتلبية هذا النداء.
لم تأبه "مريم" إطلاقا بمرارة مرضها، كانت تبتسم وتتلو البسمة تلو الأخرى، الحمد لا يفارق محياها، ممتنة تقول: الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا به.
لذا أمهلها القدر بعضاً من الوقت، لتلقننا درساً نحو حكمة هذه الحياة
مثل الحياة تماماً.. عطاء تام.

(3

توفر مالها الخاص أولاً، ثم تجمع الزكاة والتبرعات في البحرين، وكل دول الخليج، ثم تبحث عن كل محتاج، تختبر عبر زيارات ميدانية حجم المصاب، تشتري كل شيء، تعاين البيوت الآيلة للسقوط، تراجع أو بالأحرى تجابه مؤسسات الدولة لحل المشكلات التى تواجه الناس.
وحدها: لا تغفل عن كل الأعياد والمناسبات،كل يوم في رمضان، ترسل إفطار كامل لعوائل تتعدد، كل عيد توزع كوبونات لشراء ثياب العيد، تسرف بتقديم الأضاحي بالمئات، الهدايا بالآلاف، المواد الغذائية بلا حصر، حد مراعاة نوعية الهبات، تشتري أغلى أنواع الفاكهة، وهي تبوح: "أبي الفقارة يضوقون فاكهة الأغنياء"،الفاخر من"القرقاعون" : "عيال الفقارة خاطرهم في قرقاعون الناس اللي الله ماعطهم".
مرة ذهبت وتؤأم روحها" أم علي"، لتقديم معونة لعائلة تحت خط الفقر، عاينت حمام البيت، لتراه حفرة في الأرض،لتتصل بمقاول ما، طلبت منه الحضورالآن، ليبني حماماً متكاملاً لهؤلاء الأحياء في وطن يرفل بالنسيان.
وحدها: محتلة بالسرطان الذي يدمر جسدها، تسافر "للسعودية"، لتشرف على شراء المئات من كراسي ذوي الاحتياجات الخاصة، الأسرة الطبية للمرضى في البيوت، الأثاث،أفخر التمور، تعتني"مريم" بكل شيء يفرح فقراء البحرين .
وحدها: فرشت العديد من المساجد بالسجاد، أهدتهم المكيفات والمراوح، ساهمت في إلغاء فاتورة

الكهرباء والماء عن أسرعديدة، نسقت مع وزارة الكهرباء لإدراجهم ضمن الأسر الفقيرة، كانت تتقدم بعربتها الصغيرة، شاحنات ممتلئة بمئات المكيفات والسخانات والأثاث، بيتها وحده، مستودعاً للأثاث، تدعو من يحتاج ليأتي ويختار.

وحدها: حققت رغبة العمرة والحج للعديد من الناس، أرسلت المئات من المرضى للعلاج في الخارج، احترفت توزيع الكوبونات الغذائية كل شهر تقريباً، بداية كل عام دراسي توزع الحقائب و الثياب المدرسية، كل شتاء توزع بطانيات وملابس شتوية.

وحدها: اتقنت ترميم البيوت الآيلة للسقوط، بناء المطابخ، دورات المياه، كانت تبني قبل موتها، بيتين لأرامل ويتامى، كانت توصي كل من لديه مناسبة للفرح أو للعزاء، أن يرسل ما تبقى من الأرز،ما أن تستلم القدور الضخمة، حتى تضيف ما طهته من الدجاج أواللحوم، لترسله لجياع البحرين المبتلين بمرارة هذه الأرض، كانت تفيض بكرمها النبيل، حتى في مواقف السيارات، محطات الوقود، لتهدي الشباب العاملين هناك،ما تبقى لها من المال:" أخذوه يمه، استانسوا فيه."

(4

ودّعت كما لم تفعل من قبل،

حياة لم تكترث لغبن عدالة لا تراها